الإسلام والرسالات السماوية السابقة
وحدة في العقيدة وأصول التشريع

الدكتور رشيد كُهُوس

كلية أصول الدين بتطوان/ جامعة عبد المالك السعدي/ المغرب

Islam and the Previous Celestial Messages Unity in Beliesf and the Fundamentals Of Legislation

Dr. Rashees Kuhoos

College of Origins of Religion/ Tatwan/ Abdul Malik Al-Sa'adi University Morocco

rachid1433@yahoo.com

Abstract

Celestial Messages do not contradict each other, actually, they complete each other. People who believe in one God share the same belief despite the differences in rites.

تقديم:

إن الرسالات السماوية السابقة كلها امتداد لبعضها وليست متقاطعة، رسالات تؤكد أنه لا دين غير الإسلام جامعا للقلوب، وموحدًا للصفوف، ومنقذًا للأمم من الفتن والخطوب ما ظهر منها وما بطن، إنه الدين الذي متى تخلفت عنه أمة إلا وطوحت في سراديب الغواية، ومستنقعات الضلالة.

إن الرسالات السماوية السابقة كلها تؤكد أن الإسلام هو دين الله تعالى وهو دين واحد في الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره، أما روحه وحقيقته فواحدة لا تتغير، وهذا ما جاء به رسل الله وأنبياؤه جميعا: الإيمان بالله الواحد الأحد، والإخلاص له في العبادة، والانقياد له في الأمر والنهي، والطاعة له في المنشط والمكره، والإيمان برسله وكتبه وملائكته وعالم الغيب، ومساعدة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف أذاهم عن إخوانهم.

دين قاعدته الحق، ومن ثم فهو واحد لا يتغير، جاء ليجمع البشر كلهم على أصول ودعائم وثوابت وأخلاق وآداب واضحة وشاملة وكاملة وعالمية؛ ليجمع الناس على رب الناس وخالقهم، وليزيل الخلاق الواقع بين الإنسانية كلها.

ونظرا إلى الأهمية التي يكتسيها هذا الموضوع في هذا العصر الذي بلغ فيه الاختلاف أوجه، أحببت أن أخصه ببحث أؤكد فيه أن كل الرسالات السماوية السابقة امتداد لبعضها وإن اختلفت بعض مظاهرها وأشكالها، وأن جوهرها واحد سواء في العقيدة أو في أصول التشريع.

ولتتضح معالم هذا الموضوع سأتناوله في المباحث الآتية:

- حقيقة الإسلام؛
- الخصائص العامة للإسلام؛
- رسالة الإسلام رسالة جميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

المبحث الأول

حقيقة الإسلام

إن معنى كلمة "الإسلام" في معاجم اللغة: "الانقياد والخضوع والإذعان والاستسلام والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض"، قال أبو بكر محمد بن سابق الصقلي (ت493هـ):"وحد الإسلام الاستسلام والانقياد "[1]. وقال الشيخ العربي اللوه:"الإسلام مطلق الاستسلام والانقياد"[2].

وقد سمى الله تعالى الدين الحق الإسلام لأنه طاعة وانقياد لأمره بلا اعتراض، وإخلاص العبادة له سبحانه وتصديق خبره والإيمان به، وأصبح اسم الإسلام علما على الدين الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ.

والإسلام بمعناه العام، هو إسلام الوجه لله تعالى، بمعنى التذلل لطاعته والإذعان لأمره والخضوع الكامل له بالجوارح ظاهرا وباطنا والخلوص من الشرك، بكل صوره وأشكاله، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112].

وجميع ما في الأرض من مختلف الديانات إنما سميت بأسمائها إما نسبة إلى اسم رجل خاص أو أمة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها أو بلد نشأت فيها، فاليهودية نسبة إلى يهودا، والنصرانية نسبة إلى الناصرة، والبوذية نسبة إلى بوذا، والزرادشتية نسبة إلى حامل لوائها زرادشت...

أما الإسلام، الدعوة العامة للناس جميعا التي ختم الله تعالى بها الرسالات السابقة كلها، فإنه لا ينتسب إلى أمة بعينها، ولا إلى بلد ظهر فيه، ولا إلى النبي الذي أنزل عليه، وإنما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الإسلام.

ومما يظهر من هذا الاسم: أنه لم يؤسسه رجل من البشر، وليس خاصا بأمة معينة دون سائر الأمم، وإنما غاية هذا الدين أن يحلي أهل الأرض جميعا بصفة الإسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم فهو مسلم، ويكون مسلما كل من سيتحلى بهذا في المستقبل.

إن الإسلام دعوة الحق ودين الخليقة جميعها، ودين الفطرة دون منازع، ودين توحيد الله الواحد الأحد، وهو الدين الذي أوصى بتعاليمه في أصوله وشريعته إلى رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وكلفه بتبليغه للناس أجمعين ودعوتهم إليه، وهو الدين الذي ارتضاه الله للناس منذ خلقهم حتى يرث الأرض ومن عليها، يقوم على حقائق ثابتة، وأصول راسخة، ويعالج قضايا صالحة ومصلحة، مصدرها رب السموات والأرض ورب العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 85)، وقال جل ذكره: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: من الآية: 78).

ولا شك أن الإنسان بالإسلام يكون أحسن حالا، وأسعد مآلا، وأبعد عن المآثم والضلالات، وبالشرك يكون شر مكانا وأضل سبيلا.

وما الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج إلا مظاهر يراد منها إعلان الطاعة لله تعالى، ولا تُقبل إلا ممن دخل في دين الإسلام واعيا طوعا. أما مخبر الإسلام الحق، فهو الإخلاص لله الواحد الأحد. قال جل جلاله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 112)، وقال عز من قائل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) ﴾ (سورة يونس)، وقال عز اسمه وتقدست كلماته: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

---

(1) كتاب الحدود الكلامية على رأي أهل السنة الأشعرية ومعه مسألة الشارع في القرآن، تحقيق وتقديم: محمد الطبراني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2008/1م، ص146.

(2) الرائد في علم العقائد، مطبعة الحداد، تطوان-المغرب، ط/1995، ص46.

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:22)، أي من أخلص لله تعالى واتجه بعبوديته إليه وحده فقد سلك المنهاج الصحيح والطريق المستقيم الذي ينجي صاحبه من المهالك في الدنيا والآخرة.

والإسلام هو الخضوع لله تعالى والإذعان له والاستسلام لعظمته وجبروته، قال تبارك وتعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: 83) فإسلام الكون لله تعالى يعني خضوعه له، والانقياد لحكمه، وسيره تبعا لسنن الله تعالى ونواميسه الثابتة.

فالإسلام دين الكون أجمع، فالشمس والقمر والأرض مستسلمة، والهواء والماء والنور والظلام والحرارة والشجر والحجر والأنعام مستسلمون، بل إن الإنسان الذي لا يعرف ربه ويجحد وجوده وينكر آياته، أو يعبد غيره ويشرك به سواه، هو مستسلم من حيث فطرته التي فطر عليها.

إذا أدركت هذا فستجد أن الإنسان يتنازعه أمران:

أولهما: الفطرة التي الله الناس عليها من الاستسلام لله تعالى، ومحبته وطاعته والتقرب إليه، ومحبة من يحبه الله من الحق والخير والصدق، وبغض ما يبغضه الله من الباطل والشر والجور والظلم، وما يتبع ذلك من دواعي الفطرة من محبة الأهل والولد، والرغبة في الأكل والشرب والنكاح، وما يتطلبه ذلك من قيام أعضاء الجسم بوظائفها اللازمة لها.

آخرهما: مشيئة الإنسان واختياره، وقد أرسل الله إليه الرسل، وأنزل الكتب ليميز بين الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر، وأمده بالعقل والقلب ليكون على بصيرة في اختياره، فإن شاء سلك طريق الخير فقاده إلى الحق والهدى وجنات النعيم، وإن شاء سلك سبل الشر فقادته إلى الخزي والبوار.

فإذا نظرت إلى الإنسان باعتبار الأمر الأول وجدته مجبولا على الاستسلام، مفطورا على التزامه ولا محيد له عنه شأنه شأن غيره من المخلوقات.

وإذا نظرت إليه باعتبار الأمر الثاني وجدته مختارا يختار ما يشاء فإما أن يكون مسلما، وإما أن يكون كافرا: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان من الآية 3).

وعليه، فإن الإسلام هو دين الله الذي خَلَق خَلقَه لأجله، وبه أرسل رسله جميعا وأنزل كتبه، وهو الاستسلام والانقياد لله في القول والاعتقاد والعمل، فلا يستقيم إيمان بدون عمل، ولا ينفع عمل بدون إيمان واعتقاد صحيح، كما أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحا خالصا لله تعالى موافقا لسنة النبي ﷺ.

وقد بَيَّن لنا الله تعالى في سورة العصر مقتضيات الإسلام والإيمان، حيث يقول سبحانه في ذلك: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) ﴾. وقد دلت هذه السورة على وجوب الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر عليه، فهي ميزان للمؤمن يزن بها نفسه فيعرف ربحه من خسارته، وسعادته من شقاوته، ولهذا قال الإمام الشافعي ﷺ: "لو فكر الناس فيها لكفتهم"اهـ.

كما بين رسول الله ﷺ الأسس التي بني عليها هذا الدين في حديث جبريل عليه السلام: فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ فَأَخْبِرْنِي

عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(1).

فهذا الحديث النبوي الشريف يُبيِّن لنا مراتب الدين وهي ثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان؛ حيث بين رسل الله ﷺ أسس كل مرتبة:

فبين أسس الإسلام المتلازمة ووحدته المتماسكة التي تضمنت قول اللسان واعتقاد القلب وعمل الجوارح.

هذا، ومجمل القرآن الكريم والسنة النبوية يردان الإسلام إلى الأعمال الظاهرة التي يمكن أن يؤديها المنافق والأعرابي الذي لما يدخل الإيمان في قلبه، بينما يقتضي التحلي بشعب الإيمان، قولا وعملا، أن يكون القلب محط الأمانة، منه تنبعث معاني الصدق والإخلاص والإرادة والنية التي بدونها تكون الأعمال لغوا وعملا لا يقبله الله تعالى؛ لأن الله تعالى إنما يتقبل من المتقين.

وانطلاقا من الحديث السابق كذلك يتبين لنا أن معنى الإسلام أعم من الإيمان، لأن أحدهما استسلام بالظاهر والآخر إذعان بالباطن، وقد يجتمعان إذا تطابق الظاهر والباطن على أمر واحد فكان القول والعمل به مصداقا للاعتقاد له.

فالإيمان يراد به مطلق التصديق بحق أو باطل، ويراد بالإسلام مطلق الانقياد لأي أمر. ويراد بالإيمان التصديق بخبر السماء المنزل على الأنبياء عليهم السلام، ويراد من الإسلام خصوص الانقياد لله تعالى.

ورسول الله ﷺ فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأصول الخمسة، كما ورد في حديث جبريل عليه السلام.

وهذه المواصفات الثلاث المذكورة في الحديث تعطينا المؤمن الصالح في نفسه وخُلقه وتعامله مع الآخر، فالمؤمن الصالح علاقته بربه علاقة إحسانية: يستحضر مراقبته ولا يفتر عن ذكره وطاعته وعبادته، ينفع الناس ويحسن معاملتهم، ويميط الأذى من طريقهم، ولا يؤذي أحدا منهم، كذلك تعامله من الأشياء كلها.

فلا إيمان بلا إسلام، ولا إحسان بلا إيمان: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: 134).

المبحث الثاني

الخصائص العامة للإسلام

إن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى للعالمين وأخبر سبحانه أنه لا يقبل من أحدٍ سواه، وهو منهاج حياة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، دين كامل لا نقصان فيه، وشامل شمولا يستوعب الزمان كله والحياة كلها وكيان الإنسان كله، وجامع لكل القيم والأخلاق والتشريعات، وعالمي أي ليس لأمة بعينها ولا لجماعة لوحدها إنما للإنسانية كلها بمختلف أطيافها وألوانها وألسنتها وأصولها وقبائلها وأممها، ودين الأولى والآخرة.

لذلك خصه الله بخصائص ومميزات وصفات انفرد بها عن غيره من الديانات والمناهج الملل والمعتقدات.

ويمكن أن أجمل أهم هذه الخصائص فيما يأتي:

1– الربانية: إن أهم خصيصة للإسلام: الربانية؛ ربانية المقصد والغاية، وربانية المصدر والمنهاج.

فربانية المقصد والغاية تعني أن الإسلام يجعل غايته العليا ومقصده الله والدار الآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6)، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: 42). هذا هو المقصد الأساس والأسمى للإسلام: نيل رضى الله تعالى والسعي في كل ما يرضيه.

ولا شك أن للإسلام مقاصد أخرى ووسائل متنوعة في التشريع والمعاملات، لكنها كلها تخدم الغاية الكبرى، وتسعى لتحقيقها، ليكون الإنسان عبدا خالصا لله تعالى، لا عبدا للشهوات والملذات وزخرف الدنيا وغرورها. وصد الله حيث يقول مخاطبا حبيبه ونبيه وصفوته من خلقه سيدنا محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

(1) رواه الشيخان في صحيحيهما وغيرهما، واللفظ لمسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإسلام والإيمان والإحسان، ح8.

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(164) ﴾ (سورة الأنعام).

إن الإنسان لم يخلق ليأكل ويشرب ويلهو ويلعب كالدواب، إنما خُلق لغاية سامية ومقصد سام: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) ﴾ (سورة الذاريات). بالمحبة والعبادة يتحرر الإنسان من العبودية للأنانية المستعلية والشهوات النفسية، فالحرية الحقيقية هي أن يكون الإنسان عبدا لله تعالى، لا عبدا للهوى والنفس والشيطان.

أما ربانية المنهاج والمصدر: فتعني أن المنهاج الذي رسمه الإسلام لتحقيق غاياته وأهدافه منهاج رباني خالص، لأن مصدره الوحي المنزل على رسل الله عليهم السلام. لا منهاج بشر أو فرد من الأفراد أو مجموعة من المجموعات، إنما منهاج رُسِم في السماء وطبقه خير البرية وسيد الوجود ﷺ في الأرض: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(175)﴾(سورة النساء). وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53)﴾ (سورة الشورى).

وعليه، فالإسلام منهاج رباني عقيدة وشريعة، أدبا وخلقا، عبادة ونظاما... وبهذا يُعصم دين الله من التناقض والتطرف، والتحيز والهوى، ويتحرر الإنسان من عبوديته للإنسان.

2– الإنسانية: ونعني بهذه الخصيصة المكانة التي خصصها الإسلام للإسلام في أهدافه ومقاصده وغاياته، فرسالة الإسلام غايتها تحقيق الخير للإنسان والسمو به، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط.. وإسعاده في الدارين بفوزه برضا الله تعالى والنعيم المقيم في جوار رب العالمين وصحبة خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد ﷺ.

وتتجلى هذه الإنسانية في استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض، وخلقه في أحسن تقويم، وتمييزه بالروح العلوي، وتسخير الكون لخدمته، وتحريره من كل المعتقدات الضالة من معتقدات اليهود والنصارى والأمم الغابرة...

3– الشمول والتكامل: قال الحق جل وعلا: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (سورة الأنعام من الآية 38). فالإسلام دين شامل لجميع نواحي الحياة، سواء تعلق الأمر بالإنسان في علاقته بربه (فقه العبادات) أم بالإنسان مع أخيه (فقه المعاملات).

فرسالة الإسلام رسالة المستقبل المديد، والماضي البعيد، رسالة لكل الأزمنة والأجيال، وللعالم كله، غير محدودة بعصر ولا أمة ولا جيل، ولا بمكان ولا بشعب ولا بطبقة، رسالة الإنسان في كل مجالات الحياة بجوانبها المختلفة (السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والتربوية والعلمية...)، رسالة شاملة في تعاليمها، شاملة في عقيدتها، شاملة في معاملاتها وعباداتها، شاملة في أخلاقها وآدابها، ليس بعدها رسالة ولا شريعة، وليس بعد خاتم النبيين ﷺ نبي، ولا بعد القرآن كتاب.

4– الوسطية: ونقصد بالوسطية العدل والاستقامة والخيرية، والتعادل والتوازن بين طرفين متقابلين، مثل: الروح والمادة، والفرد والجماعة، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير... وأن يعطى لكل طرف حقه بالقسط، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط.

وتتجلى وسطية الإسلام في الاعتقاد، فلا هو يجنح للخرافيين كأساطير اليونان ولا هو يميل للمتطرفين المتشددين.

وسطية في العبادات والشعائر، فلم يكلف الإسلام الناس ما لا يطيقون، بل فرض عليهم عبادات وشعائر تطيقها أنفسهم، وترتاح فيها أرواحهم، وتسعدهم في دنياهم وأخراهم.

وسطية في الروحانية والمادية، فهو يرفض أن يكون الإنسان كالأنعام همه المادة وملذات الدنيا الفانية، كما يرفض الرهبنة والانعزال عن الحياة. فالوسطية والتوازن مطلب شرعي.

وسطية في التشريع؛ فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وبين النصرانية التي أسرفت في الإباحة، فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق البشر، بل من حق خالق الشر، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يحل إلا الطيب النافع، قال الحق عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف: 157). وقال مخاطبا الذين يضعون أنفسهم مكان المشرع يحللون ويحرمون ويكفرون ويبدعون ويُخرجون من ملة الإسلام من يشاءون تقولا على الله وافتراء عليه وتجرؤا على خلق الله وإذاية لهم: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) ﴾ (سورة النحل).

<u>5- الواقعية</u>: وتعني مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعية، ووجود مشهود، لكنه يدل على الحقيقة الكبرى والغاية العظمى: وجود الله تعالى.

ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت، وبعد الموت الحساب، وبعد الحساب الجزاء العدل.

ومراعاة واقع الإنسان، من حيث هو مخلوق من مخلوقات الله تعالى مزدوج الطبيعة، فهو نفخة من روح الله في غلاف من الطين، ففيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي.

وهكذا فالإسلام يوجه الإنسان إلى الغاية الكبرى ليدرك أن لهذا الكون خالقا يجب أن يعبد الله ولا يشرك به شيء، ثم يوجهه ليكون عنصرا فاعلا في الحياة يسير على صراط سوي.

وتتجلى هذه الواقعية في:

-الإيمان بكل أركان: الإيمان بالله، الإيمان برسل الله وأنبيائه وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقضاء والقدر.

فلا خيال الرومان ولا أساطير اليونان، بل إيمان بمن خلق الأرض والسماء، وأرسل الرسل والأنبياء، وأنزل الكتب لهداية الناس إلى الهدى ودين الحق.

-العبادات؛ وتتجلى واقعية العبادات فيما فرضه الله تعالى على الإنسان من الشهادتين وإقام الصلاة والصيام والزكاة والحج... فراعى الإسلام ظروف الإنسان وشرع لكل حالة من حالاته ما يناسبها؛ فشرع للمسافر القصر، وشرع للنفساء والحائض الإفطار وترك الصلاة حتى تتطهرا، وفطر الحامل والمرضع إن خافتا على نفسيهما الهلاك، وفطر الشيخ الكبير والمرأة العجوز إن عجزا عن الصيام مع الفدية، وشرع التيمم للمريض والجريح إن كان الماء يضره...

أضف إليه واقعية في الأخلاق والتربية، والتشريعات الاجتماعية، والتحليل والتحريم، فكان كل ذلك وفق قواعد واقعية: التدرج والتيسير والتخفيف ورفع الحجر.

<u>6- الوضوح</u>: ونعني به وضوح أصول الإسلام وقواعده ودعائمه الكبرى وعباداته ومعاملاته...

وضوح الأصول الاعتقادية: توحيد الله عز وجل، الإيمان بالرسل والرسالات المنزلة عليهم، الجزاء الأخروي... وضوح الشعائر التعبدية: فأركان الإسلام كلها واضحة.

وضوح الأصول الأخلاقية: كل ما أمر به الشرع من أمهات الأخلاق والفضائل والخصال الحميدة واضحة، من الإحسان إلى اليتامى والمساكين والفقراء، وذوي القربى، والإحسان إلى الوالدين، والأبناء والزوجات، والصدق والأمانة، والوفاء والمحبة، والعفاف والحياء، والسخاء والشجاعة، والحلم والإيثار، والعفو والسماحة، والتعاون على البر والتقوى...

وما نهى عنه الشرع واضح: نهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، والفساد والزنى، والكبائر والموبقات، والآثام والغيبة والنميمة، وسوء الظن، والخوض في الأعراض، واتهام الأبرياء، وقذف المحصنات، وتكفير الناس وبغض أهل القبلة...

أضف إلى هذا وذاك وضوح أهدافه وغاياته وتشريعاته وآدابه ومناهجه وطرقه وأصوله...

7- الثبات والمرونة: إن الإسلام الذي ختم الله به شرائعه ورسالاته، أودع فيه عنصر الثبات والخلود، وعنصر المرونة والتطور معا، فهو صالح لكل زمان ومكان ولكل الأجيال.

ثبات في الأحكام والقواعد التي لا يمكن للمسلم ولا لغيره التصرف فيها فقها وعملا، لأنها ثابتة بنصوص قطعية، ومرونة في قواعد تجعل شرائع الإسلام مواكبة لأي عصر من العصور، تسمى (فقه المتغيرات).

ثبات المقاصد والغايات والأصول والكليات والقيم الدينية والخُلُقية، ومرونة في الوسائل والأساليب والفروع والجزئيات والشؤون الدنيوية والعلمية... ولذلك يردد علماؤنا الجِلَّة دائما القاعدة الآتية: "الفتوى تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد" اهـ.

8- العالمية: إن دين الإسلام رسالة سماوية بعث الله بها جميع أنبيائه ورسله من آدم إلى خاتم النبيين رسول الله وحبيبه وصفوته من خلقه سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة بمختلف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وقبائلهم، قال الله عز اسمه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)، وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ: 28).

ويتوجه الإسلام بخطابه إلى نوعين من الناس:

الأول: الذين استجابوا لربهم وصدقوا برسالة السماء، وآمنوا بها واتبعوا النور الذي أنزلت بها، فيخاطبهم بما يترتب على إيمانهم وحبهم لنبيهم وصدقهم بالنبوة من أحكام وتشريعات وتنظيمات وسلوك وتربية وجهاد... أو يخاطبهم مبينا لهم ما أعده الله لهم في دار القرار من النعيم المقيم جزاء إيمانهم وصدقهم ونصرتهم لدينهم ونبيهم...

والآخر: الذين أعرضوا عن ربهم، ولم يؤمنوا برسالة نبيهم، ولم يصدقوه فيما أتى به من عند ربه من معجزات وآيات بينات، فيوجه خطابهم إليهم ليدخلوا في دين الإسلام، ليقوا أنفسهم حر الجحيم، أو يبين لهم ما لهم وما عليهم.

ولهذا فرسالة الإسلام رسالة عالمية، امتدت طولا حتى شملت كل الأزمان، وامتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقا حتى استوعبت شئون الأولى والآخرة.

9- الأخوة: إن الدين بعقائده وشرائعه وآدابه وأخلاقه، إنما هو غذاء للأخوة الإنسانية، وأداة لمد وشيجة المودة والرحمة بين المسلمين.

ففي ركن الصلاة يتواصل المسلمون يوميا خمس مرات في اليوم والليلة تجمعهم بيوت الله تعالى في صلاة الجماعة، كما يتواصلون في فريضة الجمعة كل أسبوع، ثم يتواصلون مرة في العام عالميا في بيت الله الحرام الكعبة المشرفة لأداء فريضة الحج.

أما ركن الصيام؛ فإن المسلمين يحققون فيه الرحمة والمودة بينهم، يواسون الفقراء والمساكين، ويفطرون الصائمين، ويتآلفون بينهم ويتوحدون في صيامه في شهر رمضان المبارك.

ثم يأتي ركن الزكاة، فيقوم الأغنياء بالإنفاق على الفقراء، لأن الله تعالى أودع حقوق الفقراء في صناديق الأغنياء، وقال للأغنياء: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سورة النور من الآية 33).

إن شجرة الدين كلها بجذوعها وأغصانها وثمراتها هي غذاء لهذا التواصل والتآلف والرحمة بين المسلمين، فلا شك أن ذلك يتطلب من كل إنسان أن يبذل النفس والنفيس في سبيل تغذية هذا التراحم والتآلف والتواصل والتواد...

هذا هو السبيل الوحيد لتوحيد الأمة وجمع شملها... فما على المسلمين إلا أن يتحابوا فيما بينهم، ويطرحوا وراء ظهورهم تلكم التأويلات البعيدة للنصوص الشرعية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ﷺ، وأن يفهموهما كما فهمهما المعاصرون للتنزيل، وأن يجعلوا أهواءهم تبعا لدينهم ولا يجعلوا دينهم تبعا لأهوائهم.

وهذه الخصيصة من أهم ما تميز به الإسلام عن باقي الملل والنحل والمعتقدات من قبل ومن بعد.

ويبقى الإسلام هو الراعي الأول للأسرة الإنسانية كلها، والضامن لها، والحافظ لحقوقها.

المبحث الثالث

الرسالات السماوية واحدة والأنبياء دينهم واحد

إن من العبارات الشائعة على ألسنة الباحثين والكتاب والتي تتردد بدون وعي أو عن غفلة عبارة: الديانات السماوية... نقولها في مواجهة الحديث عن المعتقدات الوثنية، أو الفكر الإلحادي الذي سقط في حمأته بعض البشر، ظنا منهم أن فيه سعادتهم في الحياة، وحلا لكل مشكلاتهم فيها... لكن هيهات!

ويخطئ بعض الباحثين حين يتصور أن الديانات السماوية ثلاث: اليهودية والنصرانية، والإسلام، وباليهودية جاء موسى عليه السلام، وبالنصرانية جاء المسيح عيسى عليه السلام، وبالإسلام جاء النبي محمد ﷺ.

مع أن الحقيقة التي يسجلها القرآن الكريم أن الله تعالى بعث رسله وأنبياءه جميعا بالإسلام، فهو الدين الحق عنده، وليس له دين سواه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] وأي دين غير دين الإسلام فهو مردود على صاحبه، وأي سير على غير منهاج رسل الله جميعا فنهايته التيه والضلال. يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 58].

وفي القرآن الكريم العشرات من الآيات تدعم هذه الحقيقة وتؤكد أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء من آدم عليه السلام إلى خاتم أنبيائه سيدنا محمدا ﷺ.

ومن هذه الآيات قوله عز اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]. إنها دعوة إلى الناس جميعا ليحيوا بالإسلام ويموتوا على الإسلام.

ثم يؤكد ما تحدثنا عنه دعاء الأنبياء لتختم حياتهم بالإسلام، فهذا يوسف الصديق عليه السلام بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض وأتاه الملك والحكمة والنبوة، دعا ربه بأن يميته على دين الإسلام، وعلى عبودية خالصة لله رب العالمين: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 111].

ويزيد هذه الحقيقة تأكيدا وصية خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنيه بالموت على دين الإسلام وكذلك وصى يعقوب عليه السلام بنيه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) ﴾ [سورة البقرة].

كما دعا الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه وهو يبني أول بيت للإسلام في مكة المكرمة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) ﴾ [سورة البقرة].

وقبل كل هؤلاء يؤكد نبي الله نوح ﷺ لقومه أنه أُمر بالإسلام، وجاء يدعوهم إليه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) ﴾ [يونس].

وهاهو فرعون بعدما أدركه الغرق وأجرى الله تعالى الأنهار من فوقه بعد ظن أنه تجري من تحته والخطر محدق به من كل جانب: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90]. إذن فدين موسى الذي دعا الناس إليه هو الإسلام.

والتوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى ﷺ كانت كتاب إسلام، والنبي سليمان ﷺ دعا إلى دين الإسلام، وقصته مع ملكة سبأ خير شاهد على هذا: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) ﴾ [النمل]. إنه يدعوهم إلى دين الإسلام لكونه دين أنبياء الله ورسله جميعا.

والإنجيل المنزل على نبي الله عيسى ابن مريم عليهما السلام كتاب إسلام وتبشير بني الإسلام سيدنا محمد ﷺ، ودعوة إلى الإسلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: 111]... يعلن الحواريون إسلامهم أمام نبي الله عيسى المسيح ﷺ ويشهدونه على ذلك.

ويستنكر الله تعالى على الذين يتبعون غير دين الإسلام بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[آل عمران: 83].

وإلى دين الإسلام دعا سيدنا محمدا ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على لسان سيدنا محمد ﷺ تؤكد أنه ﷺ أول المسلمين، والأسوة والقدوة في عقيدة الإسلام وعبادته وشرائعه وسلوكه وأخلاقه.

أضف إليه، فلم يكن الإسلام الذي دعا إليه سيدنا محمد رسول الله ﷺ في مطلع القرن السابع الميلادي دينا جديدا، إنما كان تجديدا لدين الله الحق، الإله الواحد ذي الدين الواحد، وذلك بعد أن تعرض لتشويه وانحراف ودخلت عليه أوهام وضلالات من صنع البشر.

ولهذا قال سيد الوجود ﷺ في حقيقة دين الأنبياء عليهم السلام، وأنه الإسلام ليعلن بذلك الوحدة الكبرى للدين: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ(1)، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ» (2).

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات ورسل الله جميعا، هي قاعدة في التصور الإسلامي، وهي التي تجعل الأمة المسلمة الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة على درب الهدى والنور، والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياةَ في ظله دون تعصب ولا اضطهاد، والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا مفتوحا للناس جميعا في مودة وسلام.

وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله، وتقوم على دين الله في الأرض، ويشعر المسلمون –من ثم– بمهمتم الكبرى في الأرض تحقيقا لسنة الاستخلاف.

ثم يدعو الله تبارك وتعالى المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن أبي الأنبياء خليل الله لإبراهيم ﷺ إلى عيسى ابن مريم ﷺ إلى دعوة الإسلام الأخيرة، ويدعو أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا

---

(1) قال ابن حجر العسقلاني: "الْأَنْبِيَاء إِخْوَة لِعَلَّاتٍ": وَالْعَلَّات بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة الضَّرَائِر، وَأَصْله أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ اِمْرَأَة ثُمَّ تَزَوَّجَ أُخْرَى كَأَنَّهُ عَلَّ مِنْهَا، وَالْعَلَل الشُّرْب بَعْد الشُّرْب ، وَأَوْلَاد الْعَلَّات الْإِخْوَة مِنْ الْأَب وَأُمَّهَاتهمْ شَتَّى. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط/1379هـ، دار المعرفة-بيروت، 489/6.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم، ح3259. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ، ح2365.

أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

لقد جاء الرسل والأنبياء جميعا –عليهم السلام– من عند مرسل واحد –سبحانه وتعالى– بكلمة واحدة هي كلمة التوحيد، ودعوة واحدة هي دعوة التوحيد، فالتوحيد هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول.

ويقرر الله تعالى في كتابه الحكيم هذه الحقيقة ويؤكدها ويكررها في قصة كل نبي أو رسول، وعلى لسان كل واحد منهم، كما يقررها إجمالا على وجه القطع واليقين: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[الأعراف: 59]. وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65]... إنها دعوة إلى التوحيد مفتاح دعوة رسل الله جميعا، وأول ما يدخل به المرء في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا، فهو أول واجب وآخر واجب.

ولذلك كان الإيمان برسل الله جميعا، دون تفريق بينهما، هو شرط الإيمان، وعدم الإيمان بواحد منهم هو كفر بهم جميعا، إذ الإيمان لا يتجزأ، فعندما يكفر المرء بواحد من الرسل يكون قد كذب الله الذي أرسله ولأن جميع الرسل عليهم السلام جاءوا بكلمة التوحيد، ومن مصدر واحد هو مصدر الرسالات السماوية جميعا.

أخرج الإمام الطبري عن قتادة قال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 150] قال: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى. آمنت اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ. فاتخذوا اليهودية والنصرانية، وهما بدعتان ليستا من الله، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث به رُسله[1].

فكل الشواهد السابقة وغيرها في القرآن الكريم كثير تؤكد أن الإسلام هو دين الله، وليس لله دين سواه، وهو الدين الذي دعا إليه أنبياء الله جميعا أقوامهم وأممهم.

أما اسم اليهودية فقد ابتدعه بنو إسرائيل، وهو مأخوذ من هاد إلى الشيء يهود إليه هودا رجع إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156].

ولعلهم اختاروا هذا الإسلام لأنهم رأوا في الخروج من مصر مع نبي الله موسى رجوعا إلى ما كانوا عليه، وعودة إلى الله، وتوبة إليه.

أو نسبة إلى "يهوذا" أحد أبناء نبي الله يعقوب عليه السلام، ورأس قبيلة من قبائلهم الإثنى عشرة.

أيا ما كان أصل النسبة فالدافع إليها هوى بشري غالب.

أما النصرانية فترجع نسبتها إلى الناصرة، بلدة في فلسطين بدأ فيها نبي الله عيسى ابن مريم عليهما السلام دعوته إلى الإسلام.

والمسيحية نسبة إلى المسيح عيسى عليه السلام، وفكرة الابتداع في الاسم واضحة؛ لأن دين الله لا ينتسب لمكان ولا يدعى لشخص، وإنما اسم الدين الحق يحمل دائما المعنى الكبير الذي يقوم عليه جوهره وتبنى عليه عقيدته وشريعته.

والمتأمل في الأسلوب القرآني يدرك أنه يدمغ هاتين التسميتين؛ حيث يقول الله جل ذكره: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: 72].

فالقرآن الكريم حين يصف اليهود يصفهم بالعداوة الشرسة للذين آمنوا ويجعلهم في خط واحد مع المشركين، وذلك تحت شعار الاسم الذي ابتكروه، وهو اليهودية.

(1) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، 354/9.

وعندما يتحدث عن أتباع نبي الله عيسى المسيح ابن مريم ﷺ باسم النصارى يذكر ذلك في رقة بالغة؛ حيث يقول تقدس قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وكأنه –سبحانه– بهذا ينفي أنها تسمية إلهية.

كما نلحظ أن القرآن الكريم إذا تحدث عن مساوئ هؤلاء وأولئك، ووصف انحرافاتهم في عقيدتهم وسلوكهم الديني يذكر ذلك في إطار هذا التعبير: قالت اليهود... وقالت النصارى.. وما في مقولاتهم إلا بغي وزيغ وضلال.

أما إذا تحدث عما لهم من محاسن فإنه يذكر ذلك تحت اسم: أهل الكتاب، أو يكون الموقف موقف تجمل معهم، ولو لم تكن لهم فيه حسنة.

وفي كتاب الله تعالى أمثلة كثيرة وشواهد جمة تؤكد هذه الحقيقة:

يقول الله عز اسمه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67].

فرغم تأخر التسميتين عن خليل الله إبراهيم، فإن الله تعالى نفى أن يكون خليله يهوديا أو نصرانيا، لأن اليهود والنصارى دائما يحاجون به كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65].

أضف إليه أنه لم ينف عنه التسميتين لكونهما متأخرتين عنه، وإنما أراد أنهما ليستا من عند الله، كما يفيد إثبات الإسلام له أنه الدين الذي اختاره الله وارتضاه.

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال النبي ﷺ : «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلاَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»(1).

والذي يؤكد أن هذين الاسمين (اليهودية والنصرانية) مبتدعان من أهواء أصحابهما رفض كل منهما لاسم الآخر ومنهجه، يصف ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 113] (2).

وخلاصة المرام في تحقيق المقام: فالدين واحد والعقيدة واحدة، والشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرام ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وقد يكون خفيفا فيزداد بالشدة في الشريعة الأخرى، وقد تختلف طرائق العبادة لكن المعبود واحد، إذ أن الشريعة تأتي لتلبية حاجة الناس وحفظ مصالحهم في الدنيا والآخرة، وهذه قد تختلف من أمة لأخرى، كما تختلف الشرائع في شمولها لبعض الأحكام مما لم يكن منصوصا عليه في شريعة سابقة خاصة، لأن شريعة لاحقة إنما جاءت مكملة أو موضحة لشريعة سابقة أو مصححة لما وقع فيها من انحراف على أيدي الأحبار والرهبان والناس.

يقول الشيخ ولي الله الدهلوي–رحمه الله–: "إن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج، تفصيل ذلك: أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على توحيد الله تعالى: عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه، وتحريم الإلحاد في أسمائه، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيما لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وأن لله ملائكة لا يعصون الله فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده، ويفرض طاعته على الناس... فهذا أصل الدين، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن ملية هذه الأشياء، إلا ما شاء الله، فإنها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن بألسنتهم، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباهها، فكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره، وجاء في شريعة موسى ﷺ القصاص فقط، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعا، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها.

وبالجملة: فالأوضاع الخاصة التي مهدت وبينت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج"(3).

(1) مسند أحمد بن حنبل، 266/5.
(2) الإسلام دعوة الحق، السيد رزق الطويل، سلسلة دعوة الحق، رقم 46، ص 139 وما بعدها.
(3) حجة الله البالغة، 86/1-87.

خاتمة:

إنه من خلال المحاور السابقة نصل إلى الاستنتاجات الآتية:

- الإسلام –الرسالة المحمدية– امتداد للرسالات السماوية السابقة ومهيمنا عليها، ورقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد بالصحة والثبات ويقرِّر أَصول شرائعها وما يتأبد من فروعها، ويعيِّن أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاءِ وقت العمل بها.
- تتفق الرسالات السماوية السابقة جميعا في مصدرها ومقصدها، فهي جميعا من عند الله تعالى الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب لغاية واحدة، هي توحيد الله تعالى، وتعبيد الناس له.
- إن العقيدة في الرسالات السماوية واحدة، وأصول التشريع واحدة، وعلى هذا فالدين الذي دعا إليه الأنبياء والرسل في كل عصر ومصر ونادوا إليه هو دين الإسلام.
- إن توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الشرك في أسمائه وصفاته وأفعاله هو قاعدة العقيدة التي بعث الله بها أنبياءه ورسله.

والحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام.